

تونس ومصر.. الثورة في ضيافة الانقلاب



الجمعة 16 أبريل 2021 11:52 م

محمد هنيد

مثلت زيارة رئيس تونس المنتخب إلى مصر خلال الأيام القليلة الماضية أبرز حدث في السياق الانتقالي التونسي بكلّ اهتزازاته وتراجعاته وصراعاته. أسالت الزيارة حبرا كثيرا في الداخل والخارج وكثرت التكهنات والقراءات والتأويلات، فكيف لرئيس منتخب ديمقراطيا أن يزور عسكريا انقلابيا ارتكب من المجازر أشعها وحوّل مصر إلى زنزانة كبيرة؟ ما جدوى الزيارة والنظام المصري تحوّل شحاتا دوليا ونقيا أسود بينتلع المليارات من القروض والهبات والمساعدات؟ لماذا هذه الزيارة إذن ولماذا في هذا السياق وهذا التوقيت بالذات وتونس على كفّ عفرت بسبب الرئيس نفسه؟

ربيع تونس وربيع مصر

يمكن القول دون مجازفة تحليلية إنّ ربيع مصر وثورتها ما كان لهما أن يكونا لولا ربيع تونس وثورته. ليس هذا الإقرار استنفاصا من حجم مصر ولا من قدرة شعب مصر المناضل بل هو تذكير بالسياق الثوري الذي عرفته المنطقة العربية منذ عشر سنوات خلت. كانت ثورة تونس الشرارة التي أيقظت المارد المصري من سباته بعد أن أدركت الجماهير أن النظام السياسي العربي قابل للسقوط وأن الاستبداد ليس قدر الأمة. إثر الانفجار المصري ومشهد الملايين من البشر في الساحات والميادين يغزو شاشات العالم نسي المراقبون ثورة تونس وتراجع الاهتمام بها والخوف منها، لأن ثورة مصر قد أكدت أن الحركة الانفجارية العربية لم تكن حركة عفوية ولا صدفة تاريخية.

تتالت الأحداث وسقطت أهمّ الثورات العربية في فخ الانقلابيين وتمت الإطاحة بواحدة من أندر المشاهد الديمقراطية في تاريخ البلاد وفتّحت البلاد على المجازر والمعتقلات. عاد نظام العسكر أشرس مما كان عليه وانطفأت شعلة الثورة. أما في تونس فلم تنجح كل المحاولات الانقلابية التي قادتها الثورة المضادة بل تمكنت البلاد من إنجاح أكثر من مناسبة انتخابية وتتالت الحكومات بشكل سلس رغم كل الأزمات التي تعرفها البلاد وخاصة تلك المتعلقة بتردي الوضع الاجتماعي والاقتصادي. نجحت تونس في ما فشلت فيه مصر لأسباب يطول شرحها فمنها ما هو متعلق بالسياق الداخلي ومنها ما هو متعلق بالسياق الخارجي والمصالح الدولية.

الزيارة المرعبة

وصل قيس سعّيد إلى الفوز برئاسة تونس بعد انتخابات شعبية وضعته وجها لوجه في الدور الثاني أمام شخصية أجمع التونسيون على الحذر منها وهو رئيس حزب قلب تونس. أغرق سعّيد التونسيين في الشعارات الفصفاضة وفي الشعبويّة المُستهلكة فكان شعار "التطبيع خيانة" و"الشعب يريد" على رأس المقولات التي أثنت حملته الانتخابية. حسبه كثيرون على الثورة وهو الذي لا يُذكر له مقال يتيم في معارضة النظام بل كان جزءا منه وساهم في التشريع له عبر المحاضرات التي كان يُلقّيها خدمة لدكتور دكتاتور تونس بن علي.

لكن لم تمرّ على رئاسته أسابيع قليلة حتى انكشف القناع عن المشروع الانقلابي الذي كان يحمله الرئيس الجديد وهو الذي أعلن في أكثر من مناسبة أنه الرئيس الوحيد وأنّ البرلمان لا قيمة له وكذا الحكومة. تمرّد الرئيس على الدستور نفسه وأمعن في إهانة النوّاب وبالغ في محاولة العودة بالبلاد إلى مرّجّ الحكم الرئاسي المطلق سليل الدكتاتورية.

في هذا الإطار من محاولات الانقلاب على البرلمان وعلى النظام السياسي للبلاد تأتي الزيارة المريبة لمصر وهي الدولة التي فقدت بعد الانقلاب كل الاحترام الذي كانت تحظى به عربيا ودوليا إثر ثورة يناير. قراءات كثيرة رأت في الزيارة سعيا للبحث عن دعم لمشروعه الانقلابي على النظام السياسي. تتأسس هذه القراءة على التصريحات المريبة لرئيس تونس الذي تحدث عن تطابق الرؤى والمواقف بين تونس ومصر. فكيف تتطابق رؤى دولة تبني مسارها الانتقالي في أجواء ديمقراطية وبين نظام عسكري انقلابي لا يعترف بالأحزاب ولا بالمعارضة ولا بالرأي الآخر؟

التجربة التونسية والتجربة المصرية يقفان على طرفيّ نقيض وهو الأمر الذي أثار حيرة كثير من الملاحظين في تونس وخارجها. لكن من جهة أخرى لم يعد المشروع الانقلابي للرئيس يخفى على أحد وهو الذي يتسبب اليوم في تعطيل تشكيل الحكومة وإنشاء المحكمة الدستورية بعد أن استحوذ مستشاروه على القرار السيادي لقصر قرطاج.

أخبار كثيرة وتسريبات عديدة من مصر تحدثت عن لقاءات سرية بين الفريق الرئاسي وشبكة الانقلابات الإقليمية التي يقودها الفلسطيني دحلان. كما أن حديث الرئيس عن محاربة الإرهاب وفق الرؤية العسكرية للنظام المصري تعني أنه يندرج في خطاب الثورات المضادة ورؤيتها للإرهاب الذي يقصد به الحرب على المعارضين الإسلاميين.

لم تكن زيارة الرئيس التونسي مخيبة للآمال فقط بل اعتبرها كثيرون خيانة لثورة تونس وخيانة لشهداء ثورة مصر وشهداء رابعة وتحالفا مريعا مع منظومة الانقلابيين وانخراسا صريحا في سياق الثورات المضادة. لم تحقق الزيارة أية مكاسب اقتصادية أو تنموية أو مشاريع مشتركة قد تخفف من وطأة الأزمة الاجتماعية الخانقة بل كانت مناسبة زار فيها الرئيس السائح معالم القاهرة التاريخية في موكب رئاسي لا غير. الزيارة كانت من وجهة نظر أخرى مناسبة فاز فيها الجنرال الانقلابي باعتراف تونس مهد الربيع العربي به رئيسا لمصر وحاكما على أطلال ثورة يناير.

الثورة مسارات ومنعرجات وموجات متعاقبة وانكسارات ونجاحات وهو ما يجعل من ثورات الربيع فاتحة لموجات متعاقبة من التغيرات التي لن تتوقف مهما أوغلت الآلة الانقلابية في التنكيل والبطش. الثورات دروس وعبر وتراكمات لا تتوقف حتى تحقق الشروط التي انطلقت من أجلها مهما حاول الانقلابيون والمتحايلون السطو عليها أو حرف مساراتها.

نقلا عن "عربي21"

